

العنوان: المرأة المخفية

النص: تكوين 16

الفكرة الرئيسية: لا أحد مخفي عن الله

الفكرة اللاهوتية الرئيسية: حضور الله

الترانيم الختامية الممكنة: على الصليب (هيل سونغ)، أنت رائع في هذا المكان

تم تقديم العظة في كلية سنغافورة للكتاب المقدس في اجتماع (مدرسة اللاهوت الإنجليزية) بتاريخ 4 آذار 2014

مقدمة – سارة العاقر تعطي هاجر لأبرام

أنا أكره اسمي، يقولون أنه من المفترض أن تخبر الأسماء العالم من هو الشخص، اسمي يعني سفر أو غريب، لماذا يريد أي أبوين مثل هذا الإسم لطفلهم؟ لكني لا أتذكرهم على أي حال، لقد كانوا فقراء وأنا كنت جارية أو خادمة، بمقدار ما أستطيع التذكر على الأقل في بلاط فرعون، كنت مع شعبي ومن ثم أعطيت لساراي، كنت سعيدة لخدمة سيدة كهذه، لكن عندما ذهبت هي وأبرام إلى كنعان أخذوني معهم، افتقدت مصر وكل الخيار والبطيخ والكراث والبصل والثوم، ولكن ما أهمية رأي الجارية في المكان الذي ستذهب إليه؟

لقد سمعت الكثير عن الوعد عندما دخلت أول مرة إلى بيتهم، أحببت الإستماع إلى قصصهم عن الله الذي يعبدونه وعن الوعد الذي أعطاه، كانت سارة تتوهج كلما تحدثت عن كل الأولاد الذين ستمتلكهم – والذين لا يمكن إحصاء عددهم كنجوم السماء- وكانت عيونها تتلألأ مثل النجوم.

لكن بعد أن قضينا بعض الوقت في كنعان – أرض الموعد – صارت تتحدث أقل فأقل عن الأولاد، في هذه السنوات العشر تحولت من جميلة إلى مريرة، لكن الحياة كانت محتملة حتى أخبرتني أنني سأنجب أطفالها، كانت هذه ممارسة معروفة في تلك الأنحاء، وهي أعلى ما يمكن أن تطمح فيه الجارية، لكن ماذا عن الوعد؟ لم أفهم ومع ذلك ماذا تستطيع الجارية أن تفعل؟ أخذتني وأعطتني لإبراهيم كزوجة وأطاع إبراهيم، لا أعتقد أنها سألته عن رأيه، فماذا عني أنا الجارية؟ كنت كالثمره في قصة حلقهم، أخذتها المرأة وأعطتها للرجل فأكل.

كان من المفترض أن يكون البرقع شيئاً سعيداً – كتغيير من فتاة غلى امرأة، لكن عندما غطى البرقع الأسود وجهي، فكرت أنه لا أحد سيراني ثانية.

تساعد حدة الحدث – الحمل وسوء المعاملة

بعد ذلك صرت حبلى أي أنني أخيراً صرت شخصاً ما، إنجاب الأطفال هو أكثر الأشياء أهمية التي تفعلها المرأة، لا زلت جارية وزوجة ثانية، لكنني سأصبح أمّاً وأضمن مكاني في العائلة، كنت حبلى بعكس ساراي، كنت سعيدة أفلا تكون سعيداً مثلي؟ أعلم أن الطفل سيكون طفلها في النهاية، لكنه طفلي لفترة بسيطة على الأقل.

كانت ساراي سعيدة ولكن ليس لفترة طويلة، تدمرت على أبرام ولامته بسبب معاناتها، ربما في بعض الأحيان كنت متكبرة وغير حساسة، لكن من الذي يعاني؟ لم أكن أنا.

ارتعبت عندما قالت لأبرام: يقضي الرب بيني وبينك، هذا يبدو كلجنة لكنني شعرت بالإرتياح لأنها قالت ذلك له وليس لي، لكن هذا كان لبرهة قصيرة. توقعت من إبراهيم أن يعيد السلام لي ويحميني – الزوجة الثانية وأم ابنه الذي لم يولد بعد، لكنه قال لها: افعلي ما يحلو لك فهي جارتك، حتى أنه لم ينظر إلي وذهب خارج الخيمة.

عندها أصبحت الحياة لا تطاق، كنت تحت تصرف ونداء ساراي في كل لحظة يقظة، لقد أعطتني كل المهام الصعبة، فحملت الماء حتى ألم جسدي كله، صنعت الخبز في النار حتى احترقت يداي، لقد كنت متعبة وكانت القشة الأخيرة عندما ضربتني.

لم يكن هناك أي سبب يدعوني للبقاء، سوف أبقى دائماً الجارية التي يتم استغلالها، كما أن طفلي سينتزع مني، لهذا سوف أتخذ قراراً حتى لو مرة واحدة في العمر، في ظلمة الليل هربت متجهة إلى مصر بلدي، هناك لن أكون غريبة فيما بعد.

التفت لألقي نظرة أخيرة على ما عشته لفترة طويلة، تحرك رفرف الخيمة فهل رأني أحدهم؟ أم أن ذلك بسبب الريح؟ لم أبقى لأعرف لكنني ركضت بأسرع ما يمكن أن تحملني قدماي، وبأقصى سرعة يسمح بها بطني المنتفخ، أبطأت سيرتي أخيراً عندما أدركت أن لا أحد يتبعني، لم تكن هناك كلاب في أعقابي ولا جمال في الأفق، لقد صرت حرة من البيت.

الذروة – عين الماء والظهور الإلهي

أعرف ما تفكر فيه: إن هربت فلماذا الرجوع؟ أتمنى لو كان لدي جواب سهل، لكن يمكنني أن أخبرك ما حدث بعدها فقط، لا يمكن للمرأة الحامل أن تبقى على قيد الحياة لفترة طويلة في الصحراء وحدها، بسبب الرمال على قدر ما تستطيع العين أن ترى والتعب والجوع وفوق ذلك كله العطش. كانت حنجرتي أجف من الصحراء التي حولي، لم أهتم إن كنت سأموت لكن ابني يجب أن يعيش، لم أستطع الرجوع ثم من العدم كانت هناك عين ماء، لقد لعقت الماء بينما كانت مياه العين تتدفق على وجهي.

في ذلك المكان ناداني أحدهم باسمي هاجر، تجمدت في مكاني لأنه لم يدعني أحد باسمي لفترة طويلة جداً، هل كانوا رجال إبراهيم؟ نظرت فإذا هو شخص غريب، فهل كان حلاًماً؟ فركت عيني لكنه لا يزال هناك. عرف الغريب اسمي لكنني لم أكن خائفة، وأكمل قائلاً: جارية ساراي، لقد عرف لمن أنتمي، هل رأيته قبلاً في مكان ما؟ ثم سألتني من أين أتيت وإلى أين أذهب، قلت له الحقيقة فما الذي يمكن كتمه عن رجل غريب ولكن مألوف يعرف الكثير عني؟ أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي، لكن قبل أن أخبره أنني ذاهبة إلى مصر، قال لي أن أرجع إلى ساراي وأخضع تحت يديها. اليد التي ضربتني؟ أخضع؟ بعد كل ما فعلته بي؟ لكن الكلمات لم تخرج من فمي وتكلم ثانية: تكثيراً أكثر نسلك حتى لا يعد من الكثرة، نسل لا يعد؟ هذا يبدو مألوفاً بالنسبة لي. لم أستطع الرد قبل أن يعطيني مزيداً من الوعود، فقد قال أنني سألد ابناً، وكان يجب أن أسميه إسماعيل معناها الله يسمع، لا أستطع أن اصدق أذني، ثم قال أن ابني سيكون إنساناً كحمار الوحش، هل يبدو هذا غريباً بالنسبة لك، لكن قلب ابتهج، فقد علمت أنني لا يجب أن اضحي بابني لأبرام وساراي، الحمار ليس حيواناً للتضحية به، وسيكون برياً وحرراً لا عبداً – يستطيع ان يكون كل شيء لم استطع أن أكونه.

انخفاض حدة الحدث – الإدراك والتسمية

ثم فجأة سقطت كل القطع في المكان وسيطر علي الرعب، كان هذا الرجل الذي قطع هذه الوعود لي أنا هاجر الجارية هو إله أبرام وساراي، أنا جاريتهم الهاربة كنت سأموت بكل تأكيد، ثم نظر إلي بشدة لدرجة أن ذابت كل مخاوفي، لا أعتقد أنه قال هذه الكلمات بصوت عالٍ، لكنها أثرت في قلبي (أنا أراك)

لأول مرة في حياتي رأني أحدهم عبر الحجاب، رأني بجملتي وليس فقط يدين، قدمين، ورحم. لم يرى فقط ما يمكنني فعله بل ما أنا عليه وما يمكن أن أكونه، كل ما فعلته وكل ما صنعت لي، ماضي ومستقبلي، آمالي وأخلاصي ومخاوفي، أردت أن تستمر تلك اللحظة للأبد.

لكنني رمشت وهو رحل، لذلك سميت الرجل إيل رئي – إله الرؤية – لأنه رأني وأنا رأيته وعشت.

القرار – العودة والولادة

هكذا ولثاني مرة في حياتي أتخذت قراراً، لقد عدت، عدت بقلب مليء بالوعود، لقد عدت عارفة أن إله أبرام وساراي هو أيضاً إلهي الذي يراني، عدت عارفة أن ابني سيحصل على حياة أفضل مني.

كانوا مندهشين عندما عدت، كان أبرام أكثر اندهاشاً عندما أخبرته أنني رأيت إلهه وعشت، وأنه أطلق على ابننا اسم إسماعيل أي الله يسمع، لكنهم كانوا مصدومين أكثر عندما أخبرتهم أنني سميت الله إيل رئي.

مع أن إيل رئي لم يعد أبداً بحمايتي من المعاناة، فأنا أخدم ساراي طواعية الآن، فأنا أعلم أنني أخدمه من خلال خدمتها، في كل مرة كنت أسمع أحدهم ينادي على اسم ابني كنت أبتسم، مع أنه يعني أنه على الأرجح في مشكلة، فهو يذكرني بلقائي مع إيل رئي الله الذي يرى ويسمع.

أعتقد أن هذه هي أفضل إجابة حول سبب اختياري للعودة، لقد عدت لأنني قابلت الإله الحي الذي رأني في قمة إحباطي، هو يرى، هو يسمع، هو يعرف وهو يهتم. هل هناك طريقة أفضل لمعرفته أكثر من العيش مع شعبه؟

لا زلت أكره اسمي فهو لم يعد يناسبني، أنا لست غريبة فيما بعد، ليست لدي رغبة في الهرب فأنا أخيراً في بيتي، أنا أمة الرب فليكن لي كقوله.

(هاجر تخرج)

الخلاصة (مع قائد العبادة أو الراعي)

أنا أحب هذه القصة فهي غنية جداً باللاهوت، إنها مليئة بالمفاجآت إذ أن تكوين 16 هو صورة جميلة لرعاية الله للمهمشين والمظلومين. في الشرق الأدنى القديم كان جنس هاجر وعرقها ومكانتها الاجتماعية، يعني أنها كانت غير مرئية عملياً، ولكن على الرغم من اهتمام سفر التكوين بتتبع النسل المختار، إلا أننا نحصل على استطراد غير متوقع عن اللقاء الأكثر حميمية لإمرأة مع الله، يلتقيها الله عند عين الماء (وهو مشهد تكرر عندما التقى يسوع بالمرأة السامرية عند البئر). إن الوعد الذي أعطي لأبرام بإنجاب نسل كثير قد أعطي لهاجر أيضاً، إن الله يعمل على مقابلة الأشخاص الذين تعتبرهم الثقافة لا أحد، إيل رئي، الإله الذي يرى، إله النعمة - اللطف المحب - يصل إلى الأرض ليلتقي بشخص في أمس الحاجة إلى حبه، لا أحد غير مرئي أمام الله.

كلما تعلمنا أكثر عن الله، أصبح من الأسهل أن نترك علم اللاهوت مجرداً - لتتمكن من الإستمرار في دراستك للكتاب المقدس، وخدمة الله دون التفكير في هويته، لكن قصة هاجر ترفض هذا الميل، إذ تجعل هاجر من اللاهوت شخصياً للغاية. قبل تكوين 16 يوصف الرب بعبارات مهيبية وشاملة باعتباره الله الخالق، القاضي على كل الأرض، إله هيم، إيل شداي، صانع العهد، كما تم التأكيد على سموه وقدرته المطلقة، لكن هاجر تقدم اللاهوت من خلال الكشف عن علاقته الحميمة وحضوره. إن معرفة الله ليس فقط أنه يعرف كل شيء بل أنه يعرفني، ليس أن الله محبة فحسب بل أن الله يحبني. لقد كانت هناك وربما ستكون أوقات تبدو فيها الإثنتي عشرة بوصة بين رأسك وقلبك بعيدة جداً، انتقل من الله يعرف إلى الله يعرفني، من الله محبة إلى الله يحبني، وفي هذه اللحظات أتذكر هاجر.

يتردد صدى لاهوت هاجر الشخصي العميق في بقية الكتاب المقدس، أنا متأكد من أنها كانت ستوافق على المزمور 139 للملك داود، وهذه هي الفكرة التي أريد أن أترككم معها اليوم: بغض النظر عن أنت، أو أين كنت، أو ما فعلته، أو ما هي ظروفك، الله يراك. يسمعك. إنه يهتم بك. هو يعرفك. أدعو الله أن تبقي ذلك في قلبك طوال اليوم وحياتك.

ترنيم مزمور 139 مع رفقة يعقوب